القصص

صور من هوميروس

٤ ـ حروب طَرْوَادَة

التعبئة

للأستاذ دريني خشبة

عاد منالايوس من رحلته فى الحدود ، وليته لم يعد !

لقد جُن جنونه حينما علم من أمر زوجه وضيفه ما علم !

« علام إذن كانت كل هذه الضجة التى أحدثتها تلك اللعينة قُبيل زواجها ؟ لقد تركت عشاقها الكثيرين صرعى حول قصر أبيها ، وظلت تتيه وتدل وتتأبى وترفض ، وفيهم شجعان هيلاس وحماتها وأباتها ، وملوكها الصيد ، وفرسانها المذاويد !

فيم إذن كانت كل هذه الضجة ؟

هل منحتني جسمها فقط ، يوم اختارتني بعلاً لها ؟ وهل ذخرت قلبها للعشق الأثيم ، والهوى الفاجر ، حتى ترزقها شياطين الفتنة هذا الشاب الغُرانق اللاهى المستهتر ، فراحت تقدمه فوق مذبح جماله قرباناً للذتها النجسة ، وتقدمةً لشبابه الذميم ؟ واحَرَبا ! هل اختارتني بعلاً لها ، لا لشيء إلا أنني ملك وسليل آلهة ؟ !

يا للفاجرة !

أفى ذلك البيت الرفيع الذُّرى ، ظلت تتقلب التاعسة فى ذراعىْ هذا الخائن ، شَبقةً متلددة ؟ هل ظل هو يضمها إلى صدره الثائر فى شدة وعنف ؟ ! هل كانت تستزيده ؟

أيتها الجدران الحزينة ! كم قبلةٍ دنسة أصمّت آذانك ، وكم صرخةٍ فاجرة دوت كالرعد فى حناياك ؟ حدثني أيها الهواء المسمم عما كنت تشهد فى صميمهما ، حين كانا ينفثانك من صدريهما سمًّا قتّالاً ! خبّري أيتها الستائر ، أيتها المصابيح ، ياشموع قصري ، أيتها الأرض الملوّثة ، أيها العرش المهين ، أيها التاج الذليل .. أيتها الكؤوس التنائرة ، والأكواب القلوية .. تحدثي إليّ ! !

حدثني يا كل شيء هنا عن مهازل الفسق ومذابح الشرف !

آه ! الشرف ؟ ! الخرافة الكبرى !

الحرب ! . . . الحرب ! . . . الانتقام ! . . . الانتقام من الفاجرة ... اقتلوا الخائن ... يا حلفائى ... تنداريوس ... أدعُ حلفاءك ... لقد أقسموا جميعاً ... لقد كنت تتوقع هذه النهاية تنداريوس ... استيقظ ... استيقظى يا أسبارطة ... جنودى ... شعبى ... هلموا إلى ... »

وهكذا أرسلها منالايوس صرخةً داوية تجاوبت أصداؤها فى جميع أجواء هيلاس ، واستجاب لها كل قادر على الحرب فيها ... إلا القليل

لقد عجب عشاق هيلين حين وصلتهم صيحة تنداروس ، وصَدَقوا يمينهم التى أقسموا ، فلبوا سراعاً ؛ وانتفضت هيلاس كلها فصارت ثكنة عسكرية تعج بالجند وتضج بآلات الحرب ، واضطربت البحار بالأساطيل تيمم شطر أوليس[1] ، حيث اتفقت الكلمة على أن يبحر منها الأسطول المتحد ؛ فلا يرسو إلا فى مياه طروادة

لبّى الصيحة كل عشاق هيلين الذين أقسموا اليمين فهرعوا من المشارق والمغارب بخيلهم ورجلهم ... إلا ملك إيتاكا ... أوليسيز [2]

أوليسيز

كبر فى نفس أوليسيز أن يتقدم لخطبة هيلين فترفضه فيمن

(١) أوليس تتركب فى مقاطعة بوويطيه (التى كانت طيبة حاضرتها قديماً)

(٢) آثرنا هذه التسمية بدلا من التسمية الشائعة (هولس) لحوشيتها ، وبدلا من أوليسيس أو يوليسيس لتكرار السين ، ويسمى أيضاً أودسيوس

رقصت ، وهو مع ذاك ملك إيتاكا وبطلها الحُلاحل ، وفارس هيلاس الذى لا يشق له غبار . وكبر فى نفسه أن تؤثر عليه منالايوس ، وهو مع ذاك دونه شجاعة وأقل منه إقداماً حين يثار النقع وتستحر الحرب العوان ؛ وكبر فى نفسه أيضاً ألا تكون له زوجة يفاخر بها هيلين ، وأتراب هيلين ، وآل هيلين ، فذهب من فوره إلى عمها فتزوج ابنته الجميلة الرائعة پنلوپ : « الزهرة التى تهتز للندى ، وترقص لخيوط الشمس الذهبية ، وتُغنّى مع الأطيار ، ويسكر النسيم إذا داعب خديها ... قُبلة الحب الخالد على خدود الجمال الطليق ، وابتسامة السماء الضاحكة فى قلوب المحبين المعذبين ... پنلوپ ... الوديعة كالأطفال ، الحلوة كالرضى ، الصافية كقطرة الندى فى أوراق الورد ، المرحة كسطور الغرام فى خطاب الحب ... پنلوپ ... التى تفخر الأرض بأنها تحملها ... والهواء بأنها تستنشقه ... والسماء بأنها تظلها وتشرف عليها ... والجبل بأنها تنظر إليه ... والبحر بأنه يغسل قدميها المعبودتين !

پنلوپ ! ذات الفم العطرى ، والخد اللامع المورد ، والجبين الناصع الوضّاح ، والعنق الناهضة الجَيْداء ... ربيبة الآلهة ، ولمحة الأولمپ ، وپندورا الثانية ... »

تزوج أوليسيز من پنلوپ هذه ، فأخلصت له الحب ، وأصفاها المودة والغرام ؛ وولدت له طفله الجميل التلألئ تليماخوس (تلماك) ، فزادت محبتها له ، وتضاعفت عبادته لها ، بعد هذا الرباط القدسى الكريم

عزّ على أوليسيز أن ينأى عن زوجته الجميلة وطفله العزيز المحبوب ، لا لشىء يجر عليه مغنماً أو رفعة ، ولكن ليحارب حرباً لا تعلم إلا الآلهة كيف تنتهى ؛ فقد تكون عقباها القتل أو الفرق أو الأسر ، فتعيش الزوجة الجميلة أيما محزونة ، ويحيا الطفل يتيماً مُفجّعاً ... وثمن ماذا كل هذه المصائب وتلك الآلام ؟ ثمن امرأة أذلت سادة هيلاس ، وجرحت كبرياء زوجها ، وفضحت أباها ... ثم ... هتكت عرضها ، إذا كان لها عرض ، بفرارها مع هذا العاشق الفاجر الأثيم !!

لم يشأ أوليسيز أن يقامر بسعادته وحياته فى هذه الحرب إذن ، ولو كان فى ذلك ، كله أو بعضه ، الخنث العظيم ... فما يمين شرف هذه التى يتمسك بها ملك كبير كملك إيتاكا ، من أجل امرأة ليس لها شرف ؟!

ليقعد إذن عن هذه الحرب ، وليصمّ أذنيه دون صيحتها الكبرى ، فإذا ألحّ عليه الملحون ... فهو مجنون مأفون مخبول ... لا تهيمن عليه مسكةٌ من عقل ولا ترشفه أثارة من تفكير

أرسلوا إليه رسولهم السياسى الكبير پالاميديز يحضه على الحرب ويذكره بيمينه التى آلاها ، ويحرضه على « الطرواديين اللؤماء ، الذين يوشكون أن يفضحوا الهيلانيّين فى أعراضهم » ولكنه ألفاه يحرث شاطئ البحر بمحراثٍ هائل يجره ثورٌ ذو خوار ... وحصان عربى أصيل !!

ـ « عم صباحاً أيها الملك ... »

ـ « ... ! ... »

ـ « ماذا يصنع مولاى ؟ »

ـ « أحرث هذا الحقل الخصيب ! »

ـ « أى حقل ؟ »

ـ « الحقل الذى ترى ... أليس لك عينان تسمع بهما ، وأذنان تريان ما أفعل ؟ »

ـ « عينان تسمعان ، وأذنان تريان ؟ ... »

ـ « اذهب ... لا تشغلنى ... أريد أن أبذر حقلى هذا الصباح »

ـ « وماذا عساك أن تبذر أيها الملك »

ـ « لست ملكاً لا تهزأ بى ... نحن الفلاحين نطعمكم ونسمنكم ثم يكون جزاؤنا أن تسخروا بنا ... اذهب ... اذهب ... »

ـ « وماذا تحاول أن تزرع هنا ؟ »

ـ « سأزرع ملحاً ؟ ! »

ـ « تزرع ملحاً ؟ ! وتحصد ماذا ؟ »

ـ « أزرع ملحاً ، وأحصد ... سمكا ... هاها ... لالا ... سأحصد باذنجاناً ... ... ولكن لماذا تقف هكذا ريباً منى ؟ لماذا لا تذهب ؟ »

ـ « ألا تعرفنى يامولاى ؟ »

ـ « أرجوك ! أنا لست مولاك ولا مولى أحد ! اذهب ودعنى اشتغل »

ـ « أنا پالاميديز يامولاى ! وا أسفاه ! إن هيلاس كلها تنتظرك ليومها المشهود ! »

ـ « تنتظرنى ؟ ... إنها لابد جائعة يا بالا ... يا ماما ... يا بالا ديز ! ! »

ـ « لست بالاديز يا مولاى ! ... أنا بالاميديز ! »

ـ بالاميديز ! هذا عجيب تعال إذن فاعمل معى ... سأسأ[1] ... ... »

ـ « الحرب يا مولاى ! الأساطيل فى أوليس ! »

ـ « أى حرب ، وأى أساطيل يا رجل ؟ »

ـ « سنحارب طروادة ! »

ـ « ولم لم تذهبوا بعد ؟ »

ـ « نريد أن تكون معنا ؛ فالكل يهتف بك ويدعوك ؟ »

ـ « أنا ؟ يدعونى أنا ؟ .. أنت يا رجل لا تريد أن أزرع هذا الحقل ملحاً ؟ وماذا أصنع فى الحرب ؟ هل أخبروك أننى فارس ؟ ... اذهب اذهب ... سأسأ ... ... سأسأ ... »

ـ « ألا تعرف من أنت يا مولاى ؟ »

ـ « وهل تعرف أنت من أنت ؟ »

ـ « أنا بالاميديز ، وأنت ؟ »

ـ « أنا ؟ أتريد أن ترسل اسمى إلى الميدان ؟ ... أتتركنى بغير اسم يا رجل ؟ »

* * *

لم يستطع بالاميديز أن يفوز من أوليسيز بطائل ، فقد مثل ملك إيتاكا دور مجنون تمثيلاً متقناً ، يحاول أن يفلت من هذه الحرب التى لاشاة له فيها ولا جمل ، والتى قد يقتل فيها أو يؤسر من أجل زوجة خائنة لاشرف لها ولا عرض . بيد أن بالاميديز لم ييأس حين رأى ما شدهه من جنون الملك ، فان وسواساً وقر فى قلبه أن هذا البله قد يكون تبالهاً ، وأن ما بالملك من مس إن هو إلا حيلة يحاول أن يفلت بها من أرزاء الحرب وأهوالها ، ثم هو حيلة كذلك للتحلل من اليمين التى أقسمها عشاق هيلين

لذلك لجأ بالاميديز إلى الحيلة هو الآخر ، فانقطع أياماً ظل يرقب الملك فيها عن كثب ، بحيث لايراه أوليسيز ، ولكن الجواسيس كانت تحمل أخبار السياسى الداهية أولاً فأولاً إلى رئيس البلاط ، وهذا يحملها بدوره إلى مولاه ... الذى يفطن إلى مكر بالاميديز فيبالغ فى ادعاء الجنون ، وينزل إلى البحر يحرث موجه ... بعد إذ فرغ من حرث شاطئه ! ...

ويسقط فى يد بالاميديز فيطلق آخر سهم فى كنانته ...

ذلك أنه تحايل فسرق تليماخوس الصغير ، ولى عهد أوليسيز ، والأعز عليه من نفسه ، ومن الدنيا وما فيها ..... سرقه فذهب به إلى حيث والده يحرث الشاطئ ويحرث البحر ، فطفق يضع الغلام أمام المحراث ليرى ما يكون جنون الملك ، هل يقتل ابنه ، ويكون بذلك مجنوناً حقا ، أم يتفاداه ، ويكون جنونه محض ادعاء وبلهه تلفيقاً فى تلفيق ؟ !

ولكن الملك كان أحرص على ولى عهده ، وقرة عينه ، من أن يتم فيه حيلة بالاميديز الداهية ! فكان كلما تعرض ابنه لخطر الموت ، لوى عنان الثور ، وذاد الفرس ، متفادياً الطفل إلى الناحية التى لا يكون عليه فيها خطر . . .

فتضاحك بالاميديز ، وفضح جنون الملك ، وأخجل حيلته .. ثم لم يزل به حاضاً محرضاً حتى أقنعه بوجوب خوض هذه الحرب مع إخوانه الهيلانيين

* * *

ازدحمت جحافل الهيلانيين فى أوليس ، وانعقد المجلس الحربى لانتخاب القائد الأعلى ، فاختير ابن الشمس البكر ، أجاممنون ، شقيق منالايوس وصفيُّه ، بالاجماع

اختير أجاممنون للقيادة العامة ولو لم يكن خير أعضاء المجلس الحربى . وكيف يكون كذلك ومن أعضاء هذا المجلس أو ليسيز العظيم ملك إيتاكا ، وأجاكس بطل الأبطال وفارس كل نزال ، ونسطور أحكم من أشار بخطة فى معمعان ، وديوميديز المحارب الصنديد ... إلى آخر هذه العصبة المختارة من جبرة الأولب ، والسادة النجب من فرسان هيلاس

اختير أجاممنون إذن لأنه شقيق منالايوس وممثله فى هذه الحرب ، ثم لأنه أكبر أعضاء المجلس الحربى سناً ، وهو مع ذلك أحد شجعان هيلاس المعدودين

* * *

انتظمت صفوف الجند ، وأخذوا فى مران عنيف أياماً معدودات ، ركبوا بعدها فى سفائن أسطولهم العظيم ، وظلوا ينتظرون إذن القائد الأعلى ، أمير البر والبحر ، بالاقلاع ، فتجرى بهم الجوارى المنشآت فى موج كالجبال ... إلى ... طروادة !...

(١) سأسأ بالحار دعاء للعرب أو الانصراف أو للعمل والسير